

تاريخ القبول: 2025/10/09

تاريخ الإرسال: 2024/03/01

تاريخ النشر: 2025/11/30

العلامة عبد الملك مرتاض لغويا

Allama Abd al-Malik Murtad linguistically

نصيرة شبيادي¹جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، nassira.chiadi@univ-tlemcen.dz

المخلص:

الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض أحد أعلام جامعة وهران، وسّع بفكره الثاقب دائرة المعارف في البحث العلمي، وعمل على إثراء المكتبة العربية بأبحاثه ومؤلفاته في الأدب والنقد واللغة؛ ولقد كان التأليف في هذه المواضيع موضوع دراساته في غالب ما كتب، ومركز اهتمامه.

ولا أحد يُنكر قيمة الأعمال التي قدّمها للدرس اللغوي؛ فقد أبدى كفاءة عالية في عرض القضايا اللغوية، وطرق جميع العلوم المتعلقة باللغة العربية ومستوياتها وعلومها مستتقاً كلّ النصوص القديمة ولا يقدّر على هذا إلا من كان واسع الاطلاع.

والمؤلف حاول في كلّ أبحاثه اللغوية أن يُجدّد فيها قصد الوصول إلى تحقيق نتائج تخدم الدرس اللغوي وبالتالي فالهدف من هذا المقال هو إبراز أهم القضايا اللغوية التي طرحها عبد الملك مرتاض بطريقة جديدة، لنتوصل في نهاية البحث إلى نتيجة مفادها أن العلامة عبد الملك مرتاض تأسيساته الجديدة لقضايا اللغة العربية انبثقت من استنطاقه للتراث اللغوي العربي القديم هذا من جهة ومن جهة تعد اقتراحاته اللغوية سببا في المحافظة على اللغة العربية.

الكلمات المفتاحية: اللغة، عبد الملك مرتاض، أبنية اللغة، نظام اللغة.

Abstract:

Professor Dr. Abdel Malik Mortad, one of the prominent figures of the University of Oran, expanded the circle of knowledge with his insightful thought

In scientific research, he worked to enrich the Arab library with his research and writings in literature, criticism, and language. Writing on these topics was the subject of his studies in most of what he wrote, and the center of his interest.

No one denies the value of the works he presented to the linguistic lesson. He showed great competence in presenting linguistic issues and the methods of all sciences related to the Arabic language, its levels and sciences, interpreting all ancient texts, and only those who are well-informed are able to do this.

In all his linguistic research, the author tried to renew it with the aim of achieving results that serve the linguistic lesson.

Therefore, the aim of this article is to highlight the most important linguistic issues raised by Abd al-Malik Murtad in a new way, so that we can reach at the end of the research a conclusion that the scholar Abd al-Malik Murtad's new foundations for Arabic language issues emerged from his interrogation of this ancient Arabic linguistic heritage, on the one hand, and on the one hand, his linguistic suggestions. A reason for preserving the Arabic language.

Keywords: Language, Abdul Malik Murtad, language structures, language system.

المؤلف المرسل: نصيرة شيادي، الإيميل: NACERA83@HOTMAIL.FR

1. مقدمة:

إنّ أرض الجزائر الطاهرة تُعدّ منذ الفتح الإسلامي منارة للعلم، ومنبرا للعلماء الذين خدموا الدرس اللغوي بكلّ فروعِهِ؛ فكان لهم أسهامٌ ظاهرٌ في ازدهار حركة التأليف، فذاع صيتهم في حواضر المغرب والمشرق.

وقد حازت الجزائر قصب السبق في التأليف العلمي؛ وذلك لكثرة علمائها وتعدّد تخصصاتهم الأدبية واللغوية والدينية.... ويُعدّ الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض أحد أشهر علماء الجزائر؛ فالعالمُ ذاع صيته عبر كلّ رُبوع الوطن وخارجه؛ وذلك لنتاجه العلمي المتميّز الذي أغنى المكتبة الجزائرية والعربية على حدّ سواء.

وبالتالي فالهدف من هذه الورقة البحثية هو إظهار ملامح التجديد في التفكير اللغوي عند أحد علماء اللغة المحدثين الجزائريين وبالضبط عبد الملك مرتاض. فهذا الأخير ممن كان لهم قصب السبق في وضع تأسيسات لغوية جديدة تخص قضايا اللغة العربية، والإشكالية التي تطرح نفسها هاهنا هي: أين تكمن ملامح التجديد في قضايا الدرس اللغوي؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة تبينت منهجية مفاذاها التعريف بالعلامة عبد الملك مرتاض ومن ثمّ الولوج إلى لبّ القضايا اللغوية التي طرحها بطريقة علمية جديدة مستشهدين بأقواله العلمية التي تبرهن سبب تبنيه لقضية لغوية ما، أو رفضه إياها واقتراح بديل لها.

2. ترجمة العلامة عبد الملك مرتاض:

يعدّ العلامة الدكتور عبد الملك مرتاض أحد أبرز الكتاب الذين عرفتهم الجزائر في مرحلة ما بعد الاستقلال، فهو من النوابع الأفذاذ في تاريخ الجزائر في القرن العشرين.

وُلِدَ عبد الملك مرتاض بن عبد القادر بن أحمد بن أبي طالب بن محمد بن أبي طالب، وابن زينب بنت أحمد سوالي في العاشر من يناير 1935 بمدينة (وأصل نطقها فيما يبدو لنا «نجيعة»)، حيث إنّ العوام في تلك الناحية يقلّبون النّون ميماً،

فكان هذه القبيلة نجعت من أرض بعيدة إلى حيث استقرت بها النوى هناك)، بلدة من عرش مسيردة العليا ولاية تلمسان . الجزائر . من أم وأب جزائريين، مسلمين، سنيين . حفظ القرآن العظيم وتعلم مبادئ الفقه والنحو في كتاب والده الشيخ عبد القادر بن أحمد بن أبي طالب بن محمد بن أبي طالب بقرية الخماس التي تبعد عن الحدود المغربية الشرقية زهاء ثمانية عشر كيلومتراً.

التحق في أكتوبر من عام 1954 بمعهد ابن باديس بقسنطينة، ولاندلاع الثورة الجزائرية أغلق المعهد وتفرق طلابه شذر مذر في شهر فبراير من عام 1955 فغادر هذا المعهد فيمن غادره إلى الأبد، والتحق حينذاك عبد الملك مرتاض بجامعة القرويين بفاس (المغرب) في شهر أكتوبر من عام 1955 وقطن بالمدرسة البوعنانية التي أصيب فيها بمرض السل، فنقل إلى مستشفى مدينة فاس (دار الدبيبغ) وظل يعالج قرابة عام كامل.

وبعدها بخمس سنوات التحق بكلية الآداب جامعة الرباط (المغرب)، وفي عام 1960 تسجل في كلية الحقوق والعلوم السياسية، ومعهد العلوم الاجتماعية بجامعة الرباط.

وفي عام 1961 التحق بالمدرسة العليا للأستاذة بالرباط، وكان عضواً للمنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني (1956 . 1962)

انتخب عبد الملك مرتاض سنة 1975 رئيساً لفرع اتحاد الكتاب الجزائريين لولايات الغرب الجزائري لدى استحداث هذه الهيئة لأول مرة، وانتخب سنة 1981 عضواً في الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب الجزائريين وفاز بأغلبية أصوات الكتاب في مؤتمرهم العام، وعين مديراً للثقافة والإعلام لولاية وهران لدى استحداث هذه المديرية لأول مرة (1983-1986) وظل محتفظاً أثناء ذلك بمنصب الأستاذية في جامعة وهران.

ترأس عبد الملك مرتاض تحرير مجلة الحداثة التي كان يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها في جامعة وهران، وفي يناير سنة 1998 عينه ونصبه شخصياً

رئيس الجمهورية عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى، رئاسة الجمهورية، الجزائر، وهو منصب دستوري.

وفي يونيو سنة 2001 عيّنه ونصبه شخصياً رئيس الجمهورية في منصب رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، رئاسة الجمهورية، الجزائر، وهي وظيفة تساوي درجة وزير.

وفي عام 1999 عيّن عضواً في المجمع الثقافي العربي ببيروت.

من مساهماته العلمية نذكر:

. أسس مجلة «دراسات جزائرية»، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران (1988)

. أسس مجلة «اللغة العربية» بالمجلس الأعلى للغة العربية، وكان يرأس تحريرها، حين كان رئيساً لهذه المؤسسة التابعة لرئاسة الجمهورية (1998). (2001)

من مؤلفاته العلمية نذكر:

الحق أن مؤلفات عبد الملك مرتاض التي تزيد عن ثمانين مؤلفاً علمياً متميزاً، هي أغنى ثروة يعتز بها أبناء المغرب العربي، كما يعتز بها المشاركة الذين عرفوا العلامة محاضراً، ومنظراً، ومحللاً، ولغوياً، وعضواً في عدد من المجمع اللغوية، والمؤسسات العلمية البارزة في المشرق والمغرب.

إنّ العلامة الدكتور عبد الملك مرتاض هو رجل أثّر الحركة الأدبية، والثقافية، والفكرية بأعماله الجليلة، وإنتاجه الغزير، والمتنوع، وأعماله تكشف النقاب عن شخصية علم من أعلام الثقافة الجزائرية، والعربية، ومن مؤلفاته نذكر:

. نهضة الأدب المعاصر في الجزائر دراسة (1971)

. زواج بلا طلاق (مسرحية)، الألفاز الشعبية الجزائرية (1982)

. الخنازير رواية (1988)

. الأمثال الشعبية الجزائرية (1982)

. الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، عناصر التراث الشعبي (دراسة)

. مرابا منتشظية (رواية)

. فن المقامات في الأدب العربي (دراسة)¹

يمكننا القول إن العلامة عبد الملك مرتاض يُشكل بمفرده موسوعة علمية أسهمت بنصيب وافر في شتى ميادين المعرفة، والعلم، والأدب؛ فهو شخصية مضيئة تعددت إسهاماته، وتتنوع اهتماماته، فهو الأديب الروائي، والقصص، والمفكر والناقد، والمؤرخ، واللغوي، والمحقق، لم يترك مجالاً معرفياً دون أن يترك فيه بصماته الراسخة التي تكشف النقاب عن رؤاه العميقة، وتحليلاته الدقيقة، وفكره الثاقب.

3. عبد الملك مرتاض واللغة العربية:

إنه لمن الواجب أن نورد ما قاله العلامة عبد الملك مرتاض حول اللغة العربية، كيف لا نذكر ذلك؟ وهو من تميّز بتحليلاته اللغوية الدقيقة، وأفرد كتباً خاصة بنظرية اللغة العربية وتأسيساتها الجديدة.

يصف العلامة عبد الملك مرتاض اللغة العربية قائلاً: "إنها للعربية، رُبَّها لغة، ما أبدعها وأحلاها، وأوسعها وأعلاها، وأكملها وأرقاها، وأسهلها وأغناها، العربية حسناء ألفاظها دُرٌّ على نحرها، وكُلٌّ في عيَّها؛ وخَفَرٌ على خدِّها، وأساورٌ على معصماها؛ وبسمة على ثغرها، وزينة على شفتها؛ وبهاء على سبرها، وقُرطان في أذناها، وسرٌّ عبقريٌّ في ناصيتها، وخلخالان على مُخلَّلاها... فليس للعربية إلا أن تفاخر بما حُبِّيت به وتباهى، وترتدُّ بين اللُغى في المقامات ولا تخشاه، فواهاً للعربية ثم واه! فوحق دارة جُلْجُلٍ وما حواها، وعذارى دَوارٍ وما جلاها، للعربية سَيِّدَةُ اللِّغَاتِ منزلةً وجاهاً"²

ويقرّ عبد الملك مرتاض أنّ اللغة العربية أكبر لغات الكون إطلاقاً، وأوسعها دلالة في الدلالات، وأدقّها معاني في المعاني، وأكثرها أبنية في المباني، وأغناها تخاريج لدى المعالجة، وأوسعها تفاريق لدى التفهّم. ولذلك يتجاسر ويتكابر من يدّعي أنه قادر على معرفتها معرفة دقيقة، بمن نراهم من أكابر أئمتها.³

4. الرؤية الحداثيّة لفهم النحو من وجهة نظر عبد الملك مرتاض:

يُعدُّ النَحْوُ عمود اللغة، فلا يُمكنُ أن ننصوّر لغة دون قواعد يسير عليها المتكلم؛ فلقد صرف النحويون في القرون الأولى جُهودهم ومالهم ووقتهم في سبيل تقنين اللغة، وصونها بسياج قواعد النحو العربي ولكن الملاحظ على الإنسان العربي حاليا مُعلِّما كان أو متعلِّما عُرِفَ عن هذا العلم؛ فالمعلم يشكو صُعوبة تدريسه، والمتعلم يشكو صُعوبة فهمه؛ ولهذا لما كان النحو مُقَوِّمَ الألسن، وروح اللغة، وعمود سنامها بات الاهتمام به أكثر من ضرورة، وبالتالي فقد سعى العلامة عبد الملك مرتاض لطرح اقتراح من شأنه أن يَحْدِّثَ من صعوبة تعلم وتعليم النحو العربي؛ اقتراح مفاده التركيز على الأساسيات في تعليم قواعد النحو العربي بُغْيَة تيسيره والتمكّن منه وكذا تسهيل تعليمه وتعلّمه.

إنَّ النَحْوَ العربيّ بل علوم العربية جُملة نشأت نتيجة لإحساس هزّ وجدان الغيارى منذرا بالخطر الذي داهم لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ وهذا الشعور هو الذي دفعهم إلى التفكير الجاد في إيجاد طريقة تحفظ عليهم لغة دينهم الذي استماتوا في الدفاع عنه، ونشره في أصقاع نائية ودانية فكان النحو . القواعد . علِمَ من نتاج تقدم المجتمع وتطور العقلية العربية.

ويُعدُّ التعليم الهدف الأساس الذي فكّر فيه النحويّ القديم في دراسته للنحو العربي؛ فقد كان النحو في بداياته تعليميا ويظهر جليًا من خلال الدروس أو الحلقات التي كان يُكبُّ عليها الخليل (ت 175هـ) وسيبويه (ت 180هـ) ومن قبلهما ومن أتى بعدهما، غير أنَّ ما حدث في القرون المتأخّرة عكس الاتجاه حيث أصبح النحو صناعة لا يصل المتعلم إلى فهم ما يتعلّمه؛ فقد يُدخل نفسه في متاهات يصعبُ الخروج منها، ورأفة بالراغب في تعلّم النحو ظهرت التّصانيف والمختصرات حيث نظم كلٌّ من ابن هشام وابن معط ألفيتهما؛ وهذا كلّ كان لغرض التعليم.

أما إذا غادرنا القرون الأولى إلى العصر الحديث نجد أنَّ تعليمية النحو أمر في غاية الصعوبة؛ وهذه الصعوبة تمسُّ الطّرفين (المعلم، والمتعلم) وبالتالي فالإشكالية التي تطرح نفسها هي: ما الأسباب التي جعلت النحو العربي صعبًا؟ وما هو الحل

الذي اقترحه العلامة عبد الملك مرتاض لمواجهة صعوبة تعليمية وتعلم النحو العربي؟

يقول عبد الملك مرتاض: "إنّ النحو العربي قام كلّ على كتاب سيبويه. وكتاب سيبويه قام كله على دروس الخليل بن أحمد التي كان يعقدها لأصحابه في البصرة التاريخية، لا بصرّة هذا الزمان. ومنهم سيبويه الذي لازمه، من حياته متأخراً،... وحمل نواة الأمة الرجل . سيبويه . حملاً ينوء بأثقاله وحده، في حين لم يكن هو، في حقيقة أمره، وفيما نهض به من جهد عظيم، إلا متأملاً مؤسساً، لا مقعداً للعربية ولها منظراً"⁴

انطلاقاً من هذا التصور توصل عبد الملك مرتاض إلى الإشكال الذي عثر مسار النحو العربي، يقول: "ومن هذا التصور الذي نتصوره نحن نشأ الإشكال الذي ظلّ يُعثر مسار النحو العربي إلى يومنا هذا فيظلع في مشيه. فالنحو العربي أعظم وأعقد من أن يؤسسه رجل واحد،... ظلّ هو المرجع الأعلى للنحو العربي. وأما الأمر الآخر، فإنّ عامة العلماء حين تناولوا المسألة النحوية، تناولوها بجذاميرها، فيما عدا ابن آجروم الذي لخص بعض أبواب الكتاب في مقدمة تعليمية، مما كان يراه ضروري المعرفة لدى الناشئة والمبتدئين، وإن لم يزد على أن أخذ من سيبويه لمركزية مضمون كتابه.

أما علماء النحو، من الأمة الآخرين، فقد جروا على أن يتناولوا كل القضايا النحوية، ويعالجوا كل المسائل التي قرئت بها العربية حتى فيما شدّ منها، أو انعدمت نظائره في الاستعمال.... والمتعلمين من المبتدئين، والمتقدمين معا ظلوا يكابدون هذا السلوك التعليمي الذي سلكه علماء النحو إزاءهم، فشددوا عليهم الإعراب، وعسروا عليهم فهم العربية بالتخريجات المستحيلة، والتضميرات البعيدة، والتقدير"⁵

ويعدّ عبد الملك مرتاض المضمورات والمقدرات بالحذف وراءه الخيال أكثر من العلم، وهي لا تنهض على منطق ولا على عقل ولا على قاعدة صارمة، ولكنها قراءات نحوية اجتهدية متعسفة لتفسير الظاهرة الأسلوبية التي كثيرا ما تخرج عن الطوق، يقول: "وإنما النحو علم. والعلم قواعد صارمة. فالفاعل مرفوع أبداً،...

والمفعول منصوب أبداً، والمبتدأ اسم مرفوع أبداً، وخبره مرفوع مثله أبداً. وهذه قاعدة. والفعل المضارع الذي لم يدخل عليه عامل مرفوع أبداً. فإن دخلت عليه عوامل النصب، نصبته، وعوامل الجزم جزمته. فهو كذلك أبداً....وما خرج عن هذه القواعد، فيكون من نحو الصفوة الصافية من العلماء يتعمقون فيه، إن شاعوا ذلك، ويتفلسفون. وما خرج، إذن، عن ضوابط العلم ليس علماً وما ينبغي له، فهو أي شيء يمكن أن يكون، إلا أن يكون كذلك.⁶

ويؤكد عبد الملك مرتاض أنّ القواعد التي تضبط استعمال العربية عشرين قاعدة مركزية، على أكثر تقدير، يمكن تعليمها لأطفال المدارس في سنة واحدة، ومن جهة أخرى أشار إلى المسائل التي لا تعدّ تعلماً أساسياً من أمثلة (أفعل به) للتعجب، و(لا) للتنازع في العمل، و(لا) الاشتغال، و(لا) الزيادة والتجريد، و(لا) تعلق الجار والمجرور، و(لا) الندبة والاستغاثة، و(لا) الحكاية وهلم جرا من بعض الأبواب النحوية التي فرضها النحاة على المتعلمين فعقدوهم تعقيداً.⁷

ويعلق عبد الملك مرتاض على مسألة (المفاعيل)؛ التي عدها القدماء ومنهم ابن جني (ت392هـ) فضلات؛ (الحال، التمييز، الاستثناء، التحذير، والإغراء، والاختصاص، والنادي) يقول: "وإنا لا ندري ماذا بقي في نحو العربية لا يطلقون عليه فضلات؟ وكيف يمكن عدّ المفاعيل فضلات مثلها مثل قاعدة الترخيم التي لم تكن إلا ضرباً من عبث الأعراب في محاوراتهم في مغازات البادية؟"⁸

ويشير عبد الملك مرتاض إلى أنّ مؤسسي النحو العربي لم ينبهوا إلى وجود فاعل ذاتي، بحيث ينجز من تلقاء نفسه، ولا يحتاج إلى فاعل خارجي يفعله على الحقيقة، وهو ما يطلق عليه (الفاعل الذاتي) وهو الذي يأتي فاعلاً لأفعال المطاوعة، كما في قول القائل: انفتحت النافذة، وفتحت الزهرة؛ فالفاعل، هنا، ينهض بالفعل من تلقاء نفسه وإلا، فشتان بين قول القائل: فتحت السيدة النافذة، وانفتحت النافذة. ففي الحالة الأولى يوجد الفاعل الصريح، وفي الحالة الثانية لا يوجد فاعل أصلاً من الوجهة المنطقية، ولكنّ الفاعل ذاتي من الوجهة النحوية، ونلاحظ أنّ النافذة في هذا المثال تستحيل في الحال الثانية إلى فاعل، بعد أن كانت مفعولاً في الحال الأولى.⁹

5 . البلاغة والأسلوبية وعلاقتها بنظرية النحو العربي:

يعزو عبد الملك مرتاض وقوع النحاة في بعض المغالطات إلى فصلهم نظرية النحو العربي عن نظرية البلاغة والأسلوبية يقول: "ولعل الذي أوقع مؤسسي النحو العربي في هذه المغالطة، أنهم فصلوا نظرية النحو عن نظرية البلاغة والأسلوبية. مع أن البلاغة والأسلوبية مركزيتان في تقنين الكلام في جميع اللغى"¹⁰

فالكلام العربي . وكل كلام بشري في اللغات الأخرى أيضا . يقوم على اللعب باللغة بالتقديم والتأخير والتوتر والتريح.¹¹

ويمرعاة الاتصال بين النظريتين المشار إليهما يكشف عبد الملك مرتاض عن سرّ تقديم الفاعل على فعله في المثال (الولد دخل) فيصريح "بأن كل ما في الأمر أن المتحدث سبق الفاعل على الفعل، هنا في هذا المثال؛ لتكثت بلاغية، أو لغاية أسلوبية، بحيث إنه كان يريد التركيز على ذكر الولد قبل فعل المجيء للفت الانتباه، وتخصيصه بالحضور"¹²

ومعنى هذا أن الكلام، أن الجانب الشكلي غير معتبر مطلقا في هذه المسألة النحوية، بل من الواجب أن يولى جانب المعنى فيها ما يستحق من اهتمام، وهذا ما حدا بعبد الملك مرتاض إلى تأكيد ذلك بقوله: "إنه ليس إذن من الحق عدّ الجانب الشكلي في هذه المسألة من النحو، ولكن يجب اعتبار الجانب المعنوي فيها، فأسبقية الاسم على الفعل لا تمنحه شرف الابتدائية ما دام هو غير قادر على العمل فيما بعده؛ لأنّ الاسم جعل في النحو ليُدعّن لسلطان العوامل الداخلة عليه، المتصرفه فيه، وهو مُدعّن لما قُدّر له، وإِه فيما فيما وُضِع فيه"¹³

6 . نظرية الدلالة الصوتية عند عبد الملك مرتاض:

إنّ العرب وإن كانت تعتني بالألفاظ وتُهدبها فإنّ المعنى أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدرا في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها وزينوها وبالعوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب في الدلالة على القصد.¹⁴

ويُقَرُّ أحمد مختار عمر في كتابه علم الدلالة نفس الحقيقة التي توصل إليها القدماء من قبل؛ وهي أنَّ الطبيعة الحقيقية للغة يمكن فهمها من خلال فهم المعنى؛ ويلعب المعنى دورا كبيرا في تطبيقات كثيرة لعلم اللغة مثل طرق الاتصال وتعليم اللغة ودراسة اكتساب اللغة.¹⁵

وبالتالي فعلم الدلالة هو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في اللفظ أو الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى؛ وهكذا يظهر أنهما يعنيان بالجانب التطبيقي في لغة التواصل ويأخذان بالاعتبار أنَّ للمبنى والمعنى في النشاط اللغوي أبعاد ثلاثة: هي الصوت، وبنية اللفظ، وأخيرا اللفظة أو الكلمة المفردة التي يكون لها مدلول كائن في الذهن يعبر عن موجود في العالم حولنا؛ وهذه العناصر الثلاثة للكلمة في النشاط اللغوي: الصوت والمعنى والمدلول عليه تشكل المفهوم الذي يُحقق التواصل في اللغة الإنسانية.¹⁶

ونظرا لأهمية المعنى أصبح هذا العلم بعد أن كان فرعا من فروع فقه اللغة علما مستقلا يُعرف باسم (علم معاني الألفاظ) أو علم الدلالة *sémantique* ¹⁷ الذي ينتظم أنواعا كثيرة من الدلالات ¹⁸ حيث لا يُمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة؛ فكما تستعين علوم اللغة الأخرى بالدلالة للقيام بتحليلاتها يحتاج علم الدلالة هو الآخر إلى الاستعانة بهذه العلوم؛ فلكي يتوصل الإنسان لمعنى الحدث الكلامي لابد أن يقوم بملاحظة تشمل جوانب كثيرة من بينها الجانبين الصوتي والصرفي.

والعلامة عبد الملك مرتاض أدرك بفكره الثاقب هذين الجانبين، وأشار لقضيتين جوهريتين هما: اتفاق الدلالة الصوتية مع المدلول، ونظرية الدلالة الصوتية.

1.6 . اتفاق الدلالة الصوتية مع المدلول:

يقول عبد الملك مرتاض: "ومن أعاجيب الدلالة في اللغة العربية وتصادفها مع منطوق حروف ألفاظها، أنهم يقولون: حلا الشيء حلاوة. فإذا أرادوا إلى التكثير من ذلك والمبالغة في تقوية معناه وتكثيره ليصير مختلفا عن "حلا"، قالوا: أحلولى الشيء أخليا. ولنلاحظ هذه الحروف الجميلة اليسيرة المخارج، والمركبة من اللام والواو

المتكررتين، وهما من أضعف الحروف وألينها نُطقاً، وأندأها سمعاً. وقد سَخَرَتَ لمعنى الدلالة على شيء يُفترضُ فيه اللذة والعذوبة والنعمومة واللطافة والمرآة، فلا تقع الكلفة في نبر منطوق المضمون الجميل. وأما (الحاء) فقد جيء بها لجرجرة المعنى نحو الداخل، أي: نحو الصدر، كي يكون أعمق في النفس، وأقرب إلى القلب، وألصق بالوجدان.¹⁹

ويضيف قائلاً: "على حين نجد لفظ (اخشوشن) غير ذلك حالاً؛ فالحاء والشين المتكررتان من أخشن الحروف وأفظّها وأقَصَّها نطقاً في العربية، ولا سيما إذا اجتمعت في لفظة واحدة كما هي في هذه الحال. وأما الواو والنون الضعيفتان السهلتان فقد جاءتا للحدّ من هذه الخشونة المنطقية، وتعديل مواقع مخارج الحروف فيها، وليس من خشونة المعنى، هنا، في نفسه... وانطلاقاً من نظرنا في هذه المسألة الدلالية، في اللغة العربية، ومُصَاقبة الدلالة لعدد حروف الألفاظ، أنهم حين قالوا: "خشن الشيء" إنما قصدوا إلى مجرد خشونته في أدنى مستويات دلالة الخشونة، أي: دون التماس لمبالغة في معناه، ولا تكثير لدلالته. فلنا أرادوا إلى معنى فيه زيادة الدلالة على ما هو أكثر في الخشونة، أضافوا إليه ما يدلّ على ذلك بمضاعفة حرف الشين الذي هو الأخشن في اللفظ، بذكره مرتين اثنتين، ليتلاءم مع تكثير معناه فيه"²⁰

وهذه النوع من الدلالة كان قد تعرض له ابن الأثير في النوع الثاني عشرة من أنواع الفصاحة والبلاغة لديه فأسماه «قوة اللفظ لقوة المعنى»²¹ فقال: «هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص ..»²²

ثم أنشأ ابن الأثير يعرض لعدد من القضايا المهمة المتعلقة بهذا الباب . فتعرّض لدراسة العلاقة بين المبنى والمعنى فوضع لها من الضوابط والقواعد ما ينمُّ عن سعة أفاقه في هذا الباب وعمق دراسته؛²³ فهو يرى أنّ نقل اللفظ والعدول به من صيغة إلى صيغة أخرى أكثر حروفاً من الأولى لا بدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً، ويرى أنّ هذه الطريقة لا تُستعمل إلّا في مقام المبالغة فيقول: "اعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ من أن

يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا لا نزاع فيه لبيانه، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة.²⁴ ومن هنا نشأت الفكرة التي تقول إنّ «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى»²⁵

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير دلالة على ذلك قوله: «فمن ذلك قولهم خشن وأخشوشن فمعنى (خشن) دون معنى (أخشوشن) لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو (فعل) و(افْعُوعِل) وكذلك قولهم أعشب المكان فإذا رأوا كثرة العشب قالوا: اعشوشب.²⁶

واللافت للانتباه عدّ عبد الملك مرتاض صوت الشين صفيّرياً بعكس القدماء، يقول: "...لا متداد الصوت بهذه الشين القضة الجشة التي لا يخلو صوّثها من صفيّر، وإن حرمها من ذلك قدماء اللغويين العرب حيث لا يُقرون بصفيّرية الصوت إلا للسين والصاد والزاي."²⁷

ويعلل عبد الملك مرتاض سبب عدّه صوت الشين صفيّرياً بقوله: "قدماء اللغويين العرب لا يُقرون بصفيّرية الصوت إلا للسين والصاد والزاي، مع أنك تستطيع أن توقّظ الأموات بصفيّر الشين، والآية على ذلك أنّ كل الناس في العالم يصطنعون صوته حين يريدون النهي والرّدع، فيستغنون به عن ألف عبارة لذلك، ويستعملونه هو مصفّرين به وحده للأمر بالسكوت، أو الهدوء، كما يفعل المعلمون بالنسبة إلى المتعلمين، وكما يفعل الآباء والأمهات بالنسبة لأطفال البيت"²⁸

2.6. نظرية الدلالة الصوتية في العربية

هي التي تُستمدّ من طبيعة بعض الأصوات،²⁹ ويضرب لنا عبد الملك مرتاض مثلاً بلفظة (حبّ) التي تتركب من (حاء) و(باء) مكررة مثلث في شدها للتخلص من التكرار من وجهة، وللدلالة على قوة معنى هذا اللفظ بالالتحاد إلى الشد الذي هو قوة صوتية هائلة في المنطق العربي، من وجهة أخرى. يقول: "ونلاحظ أنّ الحاء حرف حلقي، وهو ليس مجرد ذلك، بل هو صوت دال على التلذذ إن شئت. فكل متلذذ يردده وحده دون أي صوت آخر... وهو دال على التوجع إن شئت، فكل

متوجع يردده وحده دون أي صوت آخر، والحب له شأنان اثنان: فإما سعادة وإرتياح فيه، فتكون الحاء للالتذاذ والاستمتاع وإما شقاء ومكابدة فيه وحينئذ تكون هذه الحاء دلالة على الحرقه والتوجع...وأما دلالة (الباء) المضعفة التي جاءت بعد (الحاء) فكأنها كانت من أجل تلطيف صوت الحاء الصادر من الحلق والخروج بها إلى الشفتين ليتعانق العمق مع السطح من وجهة، ولتمنح (الحاء) القوة الدلالة رطوبة تلطف من شدتها فتكمل معنى (الحاء) باتخاذ (الباء) . بحكم شفويته . معنى التقبيل والتلطيف. فكأن الحب حرقه تقبلها الشفتان بهذه (الباء)، بل بهاتين (الباعين)؛ إذ أصل النطق قبل استحالته إلى التضعيف (حب) فكأن تقبيل المعنى يحدث مرتين بحركة الشفتين اللتين تفتحان ثم تنطبقان على المعنى في حميمية عجيبة، ثم وقع اختصار ذلك في صوت واحد ولكنه قوي بهذا الشد الذي تنطبق به الشفتان في شدة صوتية مدهشة، ليدل على صدور المعنى من أعماق القلب، وأغوار النفس³⁰

7. خاتمة:

في خاتمة هذه الورقة البحثية يمكن أن أجيب عن الإشكالية التي طرحتها في المقدمة، وتتمثل في جملة من النتائج يمكن تحديدها على النحو التالي:

. إنَّ التفكير اللغوي للعلامة عبد الملك مرتاض يمكننا استكشافه من خلال كتابه القيم نظرية اللغة العربية . تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيته . حيث تحدث عن قضايا لغوية تراثية بطريقة حديثة.

. إنَّ عبد الملك مرتاض يعدّ عالماً لغوياً بامتياز، ومؤسساً لنظريات جديدة في النحو العربي، وقد أشار

في مواطن عدة من كتابه عن سبل تيسير تعليمية النحو العربي وقواعده للناشئة مبرزاً الأثر الإيجابي الذي يلعبه تيسير فهم النحو العربي في المحافظة على اللغة العربية.

. يعد عبد الملك مرتاض صاحب علم غزير، وموسوعة غنية ومتنوعة بالمعارف، والعلوم اللغوية والدليل على ذلك تفقهه في البلاغة والأسلوبية وإدراك علاقتهما بنظرية النحو العربي.

. استطاع عبد الملك مرتاض بفكره الثاقب أن يقف عند قضايا صوتية تراثية، وتحليلها بطريقة علمية رصينة مثل إشارته لاتّفاق الدلالة الصوتية مع المدلول.

8.المراجع:

1. ينظر : <https://www.marefa.org>
2. عبد الملك مرتاض، نظرية اللغة العربية . تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها . دار البصائر، الجزائر، دط، 2012م، ص 5
3. نفسه: ص 6
4. نفسه: ص6
5. نفسه: ص 6 . 7
6. نفسه: ص 8 . 9
7. نفسه: ص9
8. نفسه: ص9
9. نفسه: ص10
10. نفسه: ص 10
11. نفسه: 116
12. نفسه: ص 10
13. نفسه: ص 116
14. أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، دط، 1358 هـ، 1939 م، 352/1
15. ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، دط، دت، ص 5
16. حامد صادق قنبي، مباحث في علم الدلالة والمصطلح، دار ابن الجوزي، الأردن، عمان، ط 1 1425 هـ، 2005 م، ص 9
17. مازن المبارك، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1399هـ، 1979م، ص108

18. لمزيد من التفصيل عن أنواع الدلالات عند القدماء والمحدثين ينظر: جاسم محمد عبد العبود، مصطلحات الدلالة العربية. دراسة في ضوء علم اللغة الحديث. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1 1428 هـ، 2007 م، ص 91. 128
19. عبد الملك مرتاض، نظرية اللغة العربية. تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها. ص 92
20. نفسه: ص 92. 93
21. ينظر: ابن الأثير، المثل السائر 2 / 60
22. ينظر: ابن الأثير، المثل السائر 2 / 60
23. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم. دراسة نظرية تطبيقية. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423 هـ، 2002 م، ص 39
24. ابن الأثير، المثل السائر 2 / 60
25. رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1408 هـ، 1988 م، ص 21
26. ابن الأثير، المثل السائر 2 / 60
27. عبد الملك مرتاض، نظرية اللغة العربية. تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها. ص 92. 93
28. نفسه: ص 93
29. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، 2004 م، ص 35
30. عبد الملك مرتاض، نظرية اللغة العربية. تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها. ص 95. 96